فِي رحَابِ نَصرِ اللهِ: المُقاومةُ في مَجراها الأبديّ تَدورُ

د. علي مجيد البديري
07767368355

في هذا المَكانِ... تنبضُ الأرضُ بحضورِهِ، وكلُّ حَجرٍ فيه يُصلّي نحوَ الشَّهادةِ. هنا يتركُ الغَيبُ أثرَ قدَمِهِ، ويمشي النُّورُ بينَ المُصلّين. هو لمْ يَغب... فكلُّ فَجرٍ هنا يُشبهُ نداءَهُ، وكلُّ سَكينةٍ هي إشراقةٌ من حُضورِهِ الخَفيّ. في رحابِهِ، تشعرُ أنّ العزيمةَ والجِهادَ لنْ يتوقفا، وأنّ المُثولَ في حضرةِ الشَّهادةِ عبادةٌ تمشي على قدمِ اليَقين.

صلِّ هنا كما لو أنّكَ تراهُ، وتَسمعُ صوتَهُ وهو يَخطِبُ كما عوَّدَنا بينَ الحِينِ والآخر، وأهمسُ: يا ابنَ الزَّهراء... نحنُ على عهدِكَ، وخطواتُنا على طريقِكَ باقيةٌ، فامشِ بِها.

في حضرةِ الشهيدِ، تبدأُ الخُطوةُ من ظلِّ الأرضِ. كأنَّ الطريقَ قد تَهيّأ لكَ منذ أزلٍ لا يُذكر، وحينَ تدخُلُ، تُدخُلكَ الأشجارُ المُنحنيةُ المُحيطةُ بالمَشهدِ كلِّه، والسّكونُ الذي يَنتصبُ كرايةٍ بيضاءَ فوقَ الضَّريحِ المَهيبِ. هنا، يسكنُ النَّصرُ، نصرُ اللهِ الذي يظلُ يَجيءُ كلَّما تَلا القلبُ صورتَهُ، هنا المَقامُ. حُجرةٌ صغيرةٌ، يَضيقُ بها الجدارُ ليتّسعَ فيها السِّرُّ. لا شيءَ فيها إلا ما لا يُرى، وكلُّ ما يُرى إنّما هو ظلٌّ لما يُحسّ ولا يُقال.

الرِّيحُ تمرُّ من فوقِ الرأسِ، لتضفرَ نداءاتِ الشُّهداءِ، جميعَ الشهداءِ مِنْ أولِّ الحَقِ إلى انبلاجِ الظَّفرِ والفَتحِ، ذلكَ الذي أنزلَ معَ آدمَ عليهِ السلامُ، ومازالَ يَتنزَّلُ كلَّ حينٍ. ترى السَّقفُ فتعرفُ

أنَّ لا سقفَ يَحجزُ السَّماءَ عن هذا المَوضعِ، وترى النوافذَ فتدركَ أنَّها تستقبلُ الآتي، وتبسِطُ لخطواتِهِ ضوءَ يقينٍ وبَصيرةٍ. ضوءٌ شفيفٌ وعميقٌ، يذكرُكَ بفيضِ النَّورِ في كربلاءَ، الضوءُ الذي خُلِقَ ليحملَ عناقيدَ الحَياةِ.

تجلسُ، أو بالأحرى، تنحلُّ في الجلوسِ كقطرةٍ عادتْ إلى بَحرِها. لا دعاء يعلو فيكَ، فقط هذا الحنينُ الغامِضُ، كأنَّك تتذكرُ شيئًا لمْ تعشْهُ، أو تتأملُ شيئًا في داخلِكَ يتأملُكَ أنت.

في زاويةٍ من الغُرفةِ، ثمةَ جدارٌ يتكلمُ بلغةٍ عابرةٍ للغاتِ، عليهِ آثارُ جباهٍ ظلَّتْ تبكي حتى تشقّقتْ فيه الرُّؤى، حينَ تغوصُ أعمقَ، نحو جوهرِ التَّجلي، وانهيارِ المَعنى في مَقامِ الشَّهادةِ، تصبحُ على مَسافةٍ أقرب إلى جَوهرِ ما بعدَ العِشق، فكلُّ مَنْ مرَّ هنا، خرجَ وفيه أملٌ جديدٌ، أو قمرٌ يُولدُ، أو نجمةٌ تبحثُ عن سمائِها.

حين تنكشفُ لكَ فراديسُ الفَتحِ، سترى كلَّ ما عدا ملامحِكَ الوالهةِ بالبذلِ تتساقَطُ عن وجهِكَ، فكلُّ تجلٍّ يطلبُ شهودًا، إلا الشهادة فهي مُكتفيةٌ بذاتِها. ستُسقطُ اللغةُ كلَّ حروفِها، ليهمسَ الوجودُ: "ها قد بدأتَ ترى"، وستُدركُ أنَّ الطريقَ لنصرِ اللهِ لمْ يكنْ طَويلًا، وأنَّك لم تكنْ غَائبًا عنهُ، وما ظنَنتَه ضَوءًا في الخارجِ، كانَ شظيّةً من حضورِهِ تومضُ داخلَكَ. لقد كنتَ تبحثُ عن معنى، الآن ستدركُ أنَّ السعيَ إلى الظفرِ الإلهيّ لنْ ينتهي، وفي حضرةِ الدَّمِ الفائرِ، يكونُ الصَّمتُ امتلاءً لا يَسع النّطقَ.

في هذا المقام، كلُّ شيءٍ صامتٌ، لكنّ كلَّ شيءٍ ينطقُ بنصرِ اللهِ. حتى الظِّلال تتحركُ من يقينٍ يَسري من المَقامِ إلى قلبِكَ. وهناكَ، عندَ المَسافةِ التي لا تُقاس، تناديكَ الأرضُ: "هو لم يَغِبْ، النّصرُ بَصيرةٌ من فَيضِ الشَّهادةِ القدسيّ." ثم تخرجُ... وما خرجَتَ.